تمثلات الزمن الوجودي
في شعر ابن شُهَيد الأندلسي
Representations of Existential Time in the Poetry of Ibn Shuhad Al-Andalusi

أ.د.أناهيد عبد الأمير عباس

Prof. Dr. Anahid Abdul Amir Abbas

الجامعة المستنصرية/ كلية التربية

Al-Mustansiriya University / College of Education
anaheedanaheed564@yahoo.com

الملخص

ترصدُ هذهِ الدراسة تمثلات الزمن الوجودي في شعر ابن شُهَيد الأندلسي (٤٢٦هـ)، وهو دراسة شخصية مهمة من شخصيات الأندلس، وحاولت تسليط الضوء في إبرازه علمًا من أعلام الشعر في الأندلس، لكونه صاحب فلسفة خاصة به، إذ يراهما قسيمين في إنتاج الشعر، وإن هذا الأخير يعتمد بالدرجة الأولى على الموهبة المتعلقة بالطبع الصحيح. والسليم وهو هبة من الله تعالى لعباده وإن الحفظ الآلي لأنماط البديع والغريب لا ينتج بيانًا صحيحًا وقد ربط الطبع الصحيح بالروح، وعلاقتها في إنتاج البيان وإن هذه العلاقة متزواجة بين الروح والجسد وأن الروحانية إذا غلبت على الجسدية طلعت صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها وإذا حدث العكس كان ما يطلع من صور البيان ناقصًا. أما الصنعة فقد أكدها ولكن بشرط أن تصاحبها الموهبة والطبع السليم في العمل الأدبي.

الكلمات المفتاحية: الزمن الوجودي، الشعر الأندلسي، الشعور، الوجدان، القلق النفسي.

Abstract

This study monitors the representations of existential time in the poetry of Ibn Shuhad Al-Andalusi (426 AH), which is a study of an important personality from Andalusia, and tried to shed light in highlighting it as a flag of poetry in Andalusia, for being the owner of a philosophy of his own, as he sees them as two components in the production of poetry, although The latter depends primarily on the talent related to the correct course. And the sound, and it is a gift from God Almighty to His servants, and that automatic memorization of the patterns of the wonderful and the strange does not produce a correct statement, and the correct nature has been linked to the spirit, and its relationship in the production of the statement, and that this relationship is married between the spirit and the body, and that if spirituality prevails over the physical, the forms of speech and meanings appear in their most beautiful forms, and if the opposite happens What appeared from the pictures of the statement was incomplete. As for craftsmanship, he affirmed it, but on the condition that it be accompanied by talent and sound nature in the literary work.

key words: Existential time, Andalusian poetry, feeling, conscience, psychological anxiety.

توطئة

ترصدُ هذهِ الدراسة تمثلات الزمن الوجودي في شعر ابن شُهَيد الأندلسي (٤٢٦هـ) فكرتها من بنات أفكار الأستاذة الدكتورة فاطمة طحطح وُجِدت مبثوثةً في كتابها الموسوم (الغربة والحنين في الشعر الأندلسي)، عندما أشارت إلى ذلك في قولها " إن القراءة المتعمقة لحياته وشعره، تُبين إن كلَّ ذلك ينمُ عن حُزنٍ عميقٍ وشعورٍ بمأساوية الوجود، لا حدَّ لهُ"[١].

وفي موضعٍ آخر تُشيرُ إلى" أن حنين ابن شُهَيد إلى ماضيهِ في قرطبة عبارة عن استرجاعات واستذكارات تتوالى في تدفقٍ وتوترٍ"[٢] يُعَدُ ابن شُهَيد الأندلسي من الشعراء الذين كان للظروف التي عاشها أثرٌ في صياغةِ شخصيتهِ ونفسيتهِ المتذبذبة التي كانت وليدة مجتمعٍ أندلسي ينامُ على صنوف الترفِ بما فيها من نعيمٍ باذخٍ في تلك الربوع ويصحو على فتنٍ تهزُ كيانَهُ وتهدُ أركانَهُ وتحصدُ أبناءهُ، هكذا هي حال شاعرنا في زمنٍ وجودي بين حياةٍ وموتٍ جسدتها فلسفةُ حرفهِ المُضني في بوتقةٍ ثنائيةٍ تُصورُ مصيراً أزلياً اختزله القول الآتي لكل شيءٍ نهاية.

كل ذلك يعود إلى تجربة الشاعر الحياتية الفردية والمجتمعية إضافةً إلى ما يكتنفُ ذات الشاعر من إحساس الحياة والموت، القلق والأمن، الهوى والترف، إذ بدا لي إن ابن شُهَيد ظل ثائراً على الزمن النسقي الذي كان سائداً في العصر الجاهلي فانطلق من رؤية عدمية تُحيل على القدرة الفاعلة للزمن على الإفناء والهلاك كما كان الجاهليون يعتقدون.

حيث إن إيمانه كان يقوى تارةً، ويضعفُ تارةً أخرى، وعقيدتهُ ليست من الرسوخ بما يكفي، لتجعلهُ متصالحاً مع هذه الإشكالية، فالخوض في هذه الإشكالية وأعني الزمن الوجودي، قديمٌ قِدَم وجود الإنسان على هذه الأرض، لعل أبا حيان التوحيدي لم يجانبهُ الصواب حين وصف الخوض في مشكلة الزمن وأسئلته بقولهِ "هذا أيّدك اللهُ فنٌ ينشّف الريق، ويُضرع الخدَ، ويحبس النفسَ، ويُقّيء المبطان، ويفضح المدعي، ويبعثُ على الاعتراف بالتقصير والعجز ويدلُ على توحيد من هو محيطٌ بهذه الغوامض والحقائق ويبعثُ على عبادةِ من هو عالمٌ بهذهِ السرائر والدقائق .....ويُبين إن العلمَ بحرٌ وفائت الناس "[٣].

فالزمن إذن موضوعٌ خاضَ غمارهُ المفكرون، والفلاسفة، والعلماء، والأدباء، والفيزيائيون، واللغويون، والفنانون، على اختلاف أجناسهم ومشاربهم وعقائدهم وتركوا لنا إرثاً، ما يزال للآن موضع اشتغال الدارسين، الذين تنوعت زوايا اشتغالهم بمفهوم الزمن الوجودي وقضاياه وإشكالياته.

تسعى هذه الدراسة إلى إضافةٍ جديدةٍ في سلسلة الدراسات الزمنية المتعلقة بشعرنا الأندلسي القديم من خلال تسليط الضوء على تمثلات هذه الظاهرة وتمظهراتها في شعر ابن شُهَيد اللذي يُعَدُ إنموذجاً خصبا لظاهرة الزمن الوجودي في شعره.

«المحور الأول»

مقاربة فلسفية لمفهوم الزمن الوجودي عند مارتن هيدغر

المفهوم الجمعي للزمان المتواصل هو "زمن العواطف في أعماق نفوسنا"[٤].

لتوضيح مفهوم الزمن الوجودي عند مارتن هيدغر ربما سائل يسأل لماذا هيدغر ؟ وللإجابةِ نقول: فمنذ البدايات الأولى للفلسفة تناولت الفلسفة مفهوم الزمان كحركةٍ أو آناتٍ عبارة عن ماضي وحاضر ومستقبلٍ، فجاء هيدغر ورفض اعتبار زمانية الموجود الإنساني هي الوقت المتجدد في الماضي (ما كان)، والحاضر (ماهو كائن)، والمستقبل (ما سيكون).

وقد بيّنَ لنا سبب ذلك يعود إلى فهمنا الخاطئ لمصطلح الكينونة عبر تأريخنا الفلسفي متأثراً بآراء من سبقهُ من الفلاسفةِ، ومختلفاً عنهم، خاصةً كانط وهوسرل أستاذ هيدغر، "لأن هيدغر حدد هذه الآنات الثلاث في الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل) في اللحظة والتي تعني ماكان سيكون وعليه فقد ربط هيدغر الزمن بالوجود، فلا وجود بلا زمنٍ أياً ما كان نوع هذا الوجود وعليه يُعدُ هيدغر هو أول من أطلق هذه التسمية على الزمان بالزمان الوجودي إذ أن هيدغر جعل الزمان والوجود صنوان لا يفترقان إذ يعترف (إنه يحتاج إلى تفسيرٍ أصلي للزمان بوصفهِ أفقاً لفهم الكينونة إنطلاقاً من الزمانية بوصفها كينونة الدازاين الفاهم للكينونة)"[٥].

لذلك فقد ارتبط مصطلح الزمن الوجودي بالفيلسوف الألماني مارتن هيدغر الذي طوّرّ فكرة الزمن عن الفلسفات القديمة، بل وانتقدها أيضاً وركز بشكل أكثر على مقاربة كل من إيمانويل كانط وأستاذه هوسرل، مما شكل ثورةً على المقاربة الكلاسيكية لمفهوم الزمن حيث ان هيدغر وصل الزمن بالوجود خاصةً على المستوى الإشكالي فكلاهما غامض يصعبُ تفسيره، خاصةً بعد طرحه الإشكال: هل الزمن بالمعنى الكمي موجود فعلاً ؟أم إنه مجرد تصور أضفاهُ الإنسان على الوقائع كي يمنحها معنىً معقولاً ؟

"فالإنسان في حقيقته كائنٌ زماني، وإن الزمن جزء من وجوده وأفعالهِ"[٦] من هنا ربط هيدغر الزمن بالفرد وبتجاربه الوجودية والالتفات الى طرح سؤال الوجود بطريقة مختلفة عمن سبقه من الفلاسفة يكون فيها الدازاين أي الموجود هناك هو الكائن الوحيد المتميّز الذي يملك سلطة القول والفعل يقول هيدغر "إن ما هو أكثر أصالة من الإنسان هو الدازاين نفسه"[٧].

فالزمن الوجودي هو الزمن الذاتي وهو ليس كمياً بل كيفياً يرتبط بالفرد وتجاربه وحياته التي تتجهُ نحو الموتَ، فهو زمنٌ شعوريٌ نفسيٌ من حيث إنه لا يوجد مستقلاً عن تجارب وخبرات النفس الإنسانية وهو ما اهتمَ به علم النفسِ "الذي اتخذ من الإنسان موضوعاً له ككائنٍ حي، لا يرغب ويحس ويدرك وينفعل ويتذكر ويتخيل ويفكر"[٨].

من هنا ربط هيدغر الزمن بالفرد وبتجاربه الوجودية وبيّنَ أيضاً أسبقية الوجود على الزمن وعكس كل التمثلات التي ترى في الزمن عدواً للإنسان وقاهره الأساس.

كما إنه يرى "إن الزمانَ ليس إطاراً تقعُ فيه أحداث حياتنا، بل هو البنية الداخلية لأنفسنا فالعناية متعينة من خلال الزمان على نحوٍ بحيث هي نفسها الزمان واقعانية

الزمان ذاته"[٩] وعلى هذا الأساس يرى هيدغر "إن الزمانية هي الهيأة التي تمدُ الدازاين بالمعنى الأنطولوجي غير المنظور لعنايته من حيث هو كينونة معينة"[١٠].

وهذا ما يؤكده بقولهِ "إننا لا نسأل الكينونة وحدها ولا الزمان لوحده، فنحن لا نستعلم أبداً عن الكينونة ولا عن الزمان، لكننا نستعلم عن علاقتهما المتداخلة والحميمة وما ينبثق عنها"[١١] كان هيدغر ينظر الى الزمن كمشكلةٍ وجودية فيقول "إشكالية الزمان إشكالية منطقية إبستمولوجيا، بل هي إشكالية وجودية فالوجود هو زماني والزمن الحقيقي بأبعاده الثلاثة ماضي وحاضر ومستقبل هو "نوع من التخارجات لزمنية واحدة، تنتفي معها التراتيبية التقليدية للزمان فلا ماضي يقع خلفنا، ولا المستقبل يقع أمامنا"[١٢].

فالزمن في مفهوم هيدغر يعبر عن الحاضر الذي يكشف عن ما كان وهو الماضي وعدم الحاضر الذي يكشف عما سيكون وهو المستقبل وبذلك تكون المساحة بين الماضي والمستقبل هي المعنى الزماني للوجود فيكون "الزمان الحقيقي ليس قياساً للآنات، ولكنه تبعيد الأبعاد الزمانية أي منحها الوجود الذي نلتقي به وجوداً لما كان، أو وجوداً لمًا هو آتٍ لكن ما نقصده في (وجود ما كان) و(وجود ما ليس بعد) ليس وجودهما الحاضر، بل كحضورهما الينا كعدم حضارية، وبهذا المعنى يكون الزمان خلوة الوجود بما هو وجود الحاضر، ووجود عدم الحاضر الذي هو الماضي، ووجود عدم الحاضر الذي هو المستقبل"[١٣].

فالإنسان قادرٌ على الإفلات من أسر الزمان، والتجربة الصوفية خيرٌ مثال على ذلك حيث يتجاوز الصوفي الأزمنة وكذا الأمكنة. فالزمن إذن جزء منا، ومن كينونتنا، لهذا سيتم تجاوز التقسيم المتعارف عليه للزمن إلى ماضي وحاضر ومستقبل ليوحد هيدغر الأزمنة ويجمعها في ما سماه باللحظة ونعني بها "الحاضر المحفوظ في الزمانية الأصيلة، والذي صار بذلك حاضراً أصيلاً هو ما نسميه باللحظة"[١٤].

ونعني بوجود اللحظة حضور الدازاين في الآن وبالتالي فإن الحضور ليس مجرد مستقبلٍ انقضى وإنما انبثاقاً بذاته، أي إن ما يميز الحاضر عن المستقبل هو اللحظة ويربط اللحظة بالكينونة إنه زمن الموجود -الإنسان- الذي يتحرك نحو الموت ليبدأ رحلة أخرى وزمان لا متناهي ومن هنا فالزمن الوجودي هو الزمانية التي هي في نظر هيدغر "الوحدة الأصلية لتركيب الهُم والزمانية تجعل الهُم ممكناً من حيث إنها آنية وهي تسعى التخارج في الأنحاء الثلاثة"(١٥).

وبذلك يتعكز هيدغر على المستقبل كفعل أساسي في الوجود الإنساني دون إلغاء اللحظات الزمنية الأخرى حيث يدرك الدازاين في غمرة وجوده فيقول هيدغر "إن الكينونة الملقى بها إنما تعني على الصعيد الوجداني أن نجد أنفسنا على هذه الحال او تلك بذلك فإن الوجدان يتأسس في صلب الكينونة الملقى بها"(١٦).

وبذلك ربط هيدغر الزمانية بالوجود وهي عنده زمانية وجودية وجدانية هذه الزمانية تعمل في اللحظة وتنتهي بالموت أي أنها تمتاز بالديمومة والاستمرارية وهي عنده تقوم على البناء والكلية أي أن الزمان عنده ليس كمياً موضوعياً كما يُعتقد حسب هذا الطرح، بل هو بنية داخلية للذات، يبدأ بميلادها، وينتهي بوفاتها، إذ يقول " الزمانية الحقيقية تتزامن حسب كيفية وحالات وجود الذات سواء أكان حقيقياً أو زائفاً"(١٧).

وفي سؤاله عن الزمن فإن الزمن عنده غير منفصلٍ عن الكينونة بل هو جزءً منها فيقول "إن الزمانية هي الشرط لإمكانية التكوين الأنطولوجي للدازاين ويجب ان تكون كذلك شرطاً لفهم الكينونة التي تعتبر جزءً من هذا التكوين، وإن كان ممكناً أن يظهرَ بأن الزمن هو أفق فهم الكينونة بما هي عليه"(١٨).

فالزمن الوجودي إذن هو زمن كيفيٌ، متناهٍ، متأرخٍ، ومتأصل بالمعنى ومتجه نحو المستقبل لزمنه هو زمن فهم الوجود والكشف عن ماهيته، ويؤكد هيدغر ضرورة فهم الوجود على أنه بالأساس زماني في جوهرهِ وماهيتهِ ومكونهِ"فالزمن الدارج منصاع للآخر كما إنه يبدأ بالحاضر عكس الزمن الحقيقي بالمستقبل أي ما بعد الإضافة إلى أنه لا متناهٍ و يفتقر التأريخ والمعنى والمكان"[١٩].

نستنتج من ذلك ان وجود الكينونة هو الوحيد الذي تمتلكه الذات وتفقدهُ في أي لحظة عن طريق الموت، فالزمن الوجودي إذن هو بنية داخلية للذات يبدأ بميلادها وينتهي بوفاتها.

«المحور الثاني»

تمثلات الزمن الوجودي
في شعر ابن شهيد الأندلسي

إنَّ موضوعة الزمن الوجودي في شعر ابن شُهيّد الأندلسي يُعَدُ أيقونةً شعريةً وبؤرة نصية قائمة بذاتها، تتشظى بدورها إلى أيقونات ثقافية وصوفية، فتحولُ هذا الزمن الوجودي عبر تمثلاتٍ نستطيع ان نعرفها بأدق وأبسط تعريف نقديٍ لها هي الوجه الظاهر من المؤثرات أو المراجع الكامنة، عبر موضوعات الموت الذي احتل الجزء الأكبر من شعره، واغتراب الوجود، والغزل الصريح، ومعاناته مع المرض، والوقوف على أطلال قرطبة.

يتمظهرُ الزمن الوجودي في شعر ابن شُهيّد الأندلسي من خلال مرتكزاتٍ نصية، ومحددات، وتمثلاتٍ، تُشكلُ القطب الأكبر الذي كان الموت مسرحاً له، إذ يُجرِّد هيدغر الموت من عناصر الحدث الفردي ومن الاختبارات الشعورية والوجدانية التي تصاحبهُ، فيتناولهُ في ذاتهِ.

ويجعلهُ بنية مجردة من بنى الإنسان الباحث عن معنى الكائنات أو بالأحرى عن معنى كينونة الكائنات ثم يجدُ هيدغر نفسه مضطراً إلى توظيف مصطلحات جديدة كالمائتية والمقذوفية والزوالية، وفي ذهنه يريد مساعدة الإنسان على تلمس كينونةِ كل الكائنات الحية بالإستناد الى بنيته المائتية في الإنسان، فالموت حسب هيدغر يتيح لنا ان نفهم معنى كينونة الكائنات بارتباطها بمجرى الزمن، إذ إن الموت ينهي إمكانيات الإنسان المرتسمة في أفق زمنه الوجودي.

وعليه يصبح الإمكان الذي يمنحه الزمن للكائنات هو معنى الكينونة التي تتشارك فيها عناصر العالم كلها من جماد وحيوان ونبات وفي مقدمة هذه الكائنات الإنسان الحي الذي يتميزُ بوعيه ، من خلال ذلك يُسمي هيدغر مقاربته هذه تحليلاً وجودياً لأنه يبحث في التأصيل الَذي يصيب عمق الكيان في الإنسان وسنتناول أبرز تمثلات هذا الزمن الوجودي التي تمظهرت على النحو الآتي:

أولاً: الموت

فإذا جِئنا إلى ثيمة الموت في شعر ابن شهيد الاندلسي نجدُ إن الموت كفكرةٍ يُشكل رؤيةً للوجود يعبرُ عن قلقٍ انطولوجي داخل قصائده ولبلوغ هذه الغاية سنركزُ في تحليلنا على البعد الوجودي من خلال رفض الذات الشاعرة لفكرة الفناء، بوصفها تعبرُ عن انمحاء مطلقٍ للكينونة الإنسانية وبالتالي صوغ فلسفة وجودية تؤسس لفكرة الخلود فتبين لنا إن أثر الموت في شعر ابن شهيد الأندلسي تقابلهُ رؤية تقوم على جملةٍ من الثوابت والمتغيرات الوجدانية والوجودية لارتباط الموت بزمنٍ وجودي، فمن جهة هناك تأكيد على حتمية الموت ومن جهةٍ أخرى هناك تعبير عن رغبةٍ قويةٍ في تجاوزً دلالة الفناءالى دلالة أخرى تتمثلُ بوجود حياة الخلود والكمال بعد الفناء من جهةٍ أخرى.

هذا القلق الوجودي من الموت وظفه الشاعر عبر الانصهار مع عناصر الكون والذوبان في حركتها اللانهائية أو من خلال تحقيق الذات الشاعرة في ذات المعشوق وعدم الإذعان لمصير النسيان عبر تأسيس ذاكرة لا سلطان فيها لقوة الموت القاهرة او لعرضية الزمن "فالزمان الوجودي هو الزمان الذاتي أو الوجداني المصبوغ بالانفعال، كزمان الانتظار، أو زمان الأكل، وهذا الزمن الفاعل الذي يطلق على التأثير في الأشياء فهو موضوعي وكمي وقابل للقياس"[٢٠].

كل ذلك ممكن أن يكون سبيلاً ممهداً لظاهرة الزمن الوجودي في الأدب "فالانسان يعي كينونة الزمن من خلال خبراته الذاتية، وإحساسها يحصل له من تغيرات تصاحب نموه العضوي والنفسي معاً"[٢١] فمن المنظور الفلسفي للقضايا الوجودية يُعدُ "الزمن هو الوجه الآخر للموت"[٢٢] من هذا المنطلق يتناول الشاعر قضية الموت وقد حاول تطويع مضمونها الزمني لتجربته الإبداعية.

كان ابن شُهَيد يمثلُ صورةً حيةً لمجتمعه في عصرهِ الذي اتسم بالاضطراب والتقلب السريع للأحداث في ذلك العصر لدرجةِ تلونت حياته بها متمثلة في بروز ظاهرة التشاؤم في شعره والتي كان لأسرته النصيب الأوفر في تكوين ذلك كلما تقدم به العمر فوالده قبله قد زهد في الدنيا فاستقال من الوزارة وهجر الدنيا والناس وقد اقتفى أبو عامر خطا أبيه في ذلك إذ يقول"[٢٣]:

قَد تَرَكْنَا الصِّبا لكُلِّ غَوِيٍّ وانْسَلَخْنَا مِن كُلِّ ذامٍ وعابِ
وانْقَطَعْنَا لِواعِظَاتِ مَشِيبٍ آذَنَتْنَا حَيَاتُهَا بذَهابِ

نجد إنّ الشاعر في يأسهِ مع الحياة يعطينا أجوبةً لأسئلة انطولوجية هادفة بغية الاستفسار، وفك الغموض، وتجاوز التيه، من خلال الرضا بقضاء الله وقدره وهو بذلك يثبتُ وجوده وذاته وكيانه من خلال إفصاحهِ بالرضا عن هذا القضاء، فنجدُ الهم الوجودي والقلق المنبعث من نفسية الشاعر التي تسعى لفهم سر وجودها في زمنٍ وجودي، ربطه الشاعر بالموت والتسليم بقضاء الله، إن المتتبع لشعرهِ يجدُ ظاهرة الصراع بين رغباته الحسية التي تهوى الترف والمجون وجلسات اللهو والأنس وبين روحه المتشائمة التي ترى الموت نصب عينيها يرقبُ تصرفاتها ويقف بالمرصاد للشاعر كلما حاول تناسيه، لذا نجدُ نفس الشاعر مبددةً بين الرغبة في مُتع الحياة، وبين ذكر الموت وأهوالهِ التي طالما تذكرها في مجالس أنسهِ ونغصت عليه فرحه، فيذكر الزمن وانقضائه ويرى فيه إشارة لقرب أجله والوصول الى نهايته إذ يقول "[٢٤]:

زمنٌ قضى ثم انقضى فكأنهُ حلمٌ قرأتُ الموتَ في تفسيرهِ

يحاول الشاعر هنا الوصول الى الزمن الوجودي في الخيال وهو زمن العودة الى النفس (فكرة الخلود) إذ إن عامل فناء الزمن سرعان ما يؤكد حقيقة هشاشة الحياة نفسها مما رسخ في ذات الشاعر قناعة مفادها ضرورة وحتمية فنائه الذاتي وفناء كل ما يحيط به من تجليات الواقع الحي فتُمسي الساعات واللحظات رمَوزاً لخطواتٍ تدنو لصوب النهاية.

فيتلاشى مفهوم الزمن كزمنٍ للحياة ليضحى زمناً وجودياً متمثلاً بالموت ويتحول الجسد الى تجربة اغتراب ذاتية. يصبحُ المرءُ فيها غريباً حتى داخل جسده.فوعي الشاعر ابن شُهَيد بحتمية الموت هو ما جعله يدرك حقيقة ذاته وكينونته ومعهما تفاهة الحياة كونها مجرد حلم.

ثانياً: الشكوى ومعاناته من المرض

ولما زاد سقم الشاعر وغلب عليه مرض الفالج فلم يستطع الحركةَ لما ألمَّ به من ألمٍ وشدة ضغط الأنفاس، وعدم الصبر، أخذت تزداد شدة الصراع في نفسهِ وتضيقُ به الحياة بما رحبت فيرى أن السبيل لإنهاء معاناته هذه لا تكون إلا بالانتحار فيعزم على ذلك لكنه يتدارك نفسه قبل فوات الأوان فيرثي نفسهُ بأبياتٍ منها"[٢٥]:

أَنُوحُ على نَفْسِي وأَندبُ نُبْلَها إِذا أَنا في الضَّرَّاءِ أَزمعْتُ قتلَها
رضيتُ قضاءَ اللهِّ في كُلِّ حالة عليَّ وأَحكاماً تيقنتُ عدلَها

إذ شكلَ الموتُ أهم القضايا الوجودية التي شغلت ذهن الشاعر، وأرّقتهُ، فاحتجن ديوانه الشعري الكثير من النصوص الشعرية التي تضمنت ثنائية الحياة والموت فوظفها توظيفاًمُغلفاً بغلالةٍ من الألم والتشاؤم فعبر عن قلقه الوجودي ومصيره و خوفهِ من الموت وحبهِ للحياة فهو ينوحُ على نفسهِ التي يعرفُ قدرَ نبلها ويرضى بقضاء الله وقدرهِ، لكنهُ في الوقت ذاته يقرر الانتحار فكأنما عبر انا عن قلقهِ وحيرته أمام الموت

بإعتبارهِ أمرٌ حتمي ملازمٌ للوجود الإنساني فكان شعرهُ هو الملاذ الآمن الذي عَبّرَ من خلاله عن هاجسه الوجودي.

ثالثاً: الغزل الصريح

ومن تمثلات الزمن الوجودي في شعر ابن شُهَيد الأندلسي الغزل الصريح الذي يتوجه الى المظاهر الحسية والجسدية للمرأة في ضوء وصفها، ونقطة الالتقاء بين الغزل ومبادئ الفلسفية الوجودية تكمن في الباعث المشترَك فإذا كان الغزل العفيف قد وجد نتيجة الالتزام الأخلاقي أو الديني، فإن الغزل الصريح إنما وجد نتيجة للهروبِ من هذه القيود، والنظرِ إلى متطلبات الذات الإنسانية، فهذا ابن شُهَيد في يأسه من الحياة لم ينس الهوى والحب فمع إن الموت يكاد أن يطبق عليه إلاّ أنه يشتاقُ إلى عيون المحبوبةِ وإلى ذلك الزمن البهيج في قوله "[٢٦]:

عليكم سلامٌ من فتى عضّهُ الرَّدى ولم ينسَ عيناً اثبتت فيه نبلها

ويقول أيضاً "[٢٧]:

يُبين وكفُ الموت يخلع نفسه وداخلها حبٌ يهوِّن ثكلها

في هذه الأبيات تمنحُ القصيدة الشاعر بدائلَ وحلولاً بغية انعتاق الذات من وجع الموت، تُمكن الشاعرَ الانسان من تحقيق الانتصار على الموت باللجوءِ الى الاحتماء وراء فكرة الخلود عبر الحب فمن يحب لا يموت ومن يؤمن بالله يتولد لديه اليقين بأن الموتَ ليس فناءً، وإنما يصبحُ شيئاً اعتيادياً في مخيلة الشاعر.

ويبدو أن تعاقبَ ثنائية الموت والحياة في هذا الحب مؤداه وجود عواطفَ وجدانية مفعمة بنشوة الحب تارةً، وبالمعاناة تارةً أخرى، لكن الشاعر يتجاوز ذلك أمام الموت عبر القفز الى زمنٍ وجودي حيث لَا سلطان للموت الجسدي.ونراه لا يلبث أن يذكر أيام اللهو والصَّبا لكنه يعود مستغفراً ربه ويجمعُ بين هذين الإحساسيين، إحساسٌ بالموتِ وإحساسٌ بالحياة.

ويقول أيضا"[٢٨]:

وكوكباً لي منهم كان مغرِبَهُ قلبي ومشرقهُ ما بين أطواقي
اللهُ يعلمُ أني ما أفارقهُ إلا وفي الصدر مني حرٌّ مشتاقُ

ويقول أيضاً[٢٩]:

فإن أعش فلعل الدهر يجمعنا وإن أمت فسيسقيه كذا الساقي

ويقول أيضاً"[٣٠]:

لا ضيع الله إلا من يُضيعهُ ومن تخلق فيه غيرأخلاقي
قد كان بردي إذا ما مسني كلفٌ لا يثلم الحب آدابي وأعراقي

يظهر الحب في هذه الأبيات بوصفه انصهاراً في ذات واحدة واعلاناً بقذف الجسد وراء تخوم الحياة وهو بهذا يأتي محملاً بدلالات البهجة والسعادة فنجد العاشق نفسه مجابهاً لكل تجليات الفناء التي تهدد كينونته فيقف وجهاً لوجه أمام أشكال مختلفة من الاغتراب لكنه بفضل قوة وسلطان الحب ينتهي عاشقاً مغترباً عن الحياة الدنيا محققاً رغبته في الخلود عبر اتصاله بذاكرة العشق في زمن وجودي وبالتالي عبر انصهاره في ذات حبيبته في زمان ومكان ذو أبعادٍ ميتافيزيقية لا تنتهي بالموت الجسدي وبذلك تغدو قضية الموت مسألة وجودية لكنها تبقى مسألة تتعلق بالكينونةِ بمعنى أن الموتّ ليس بفناءٍ فهو كما يقول هيدغر " بقدر ماهو (هو) هو طبقاً لماهيته دوماً ذلك الذي يحصيني"[٣١].

أي أن الموت يصبح إمكانية انطولوجية تحقق للذات وحدتها حيث يعكس تعابير ومواقف وجودية، ثم نجد ان شبح الموت ما يلبث أن يعاوده فيقول"[٣٢]:

حتى رمتنا صروف الدهر عن كثبٍ لفرقتنا وهل من صرفهِ واقٍ

رابعاً: الشكوى من الزمن

ويصوره لنا ذلك أصدق تصوير مخاطباً صديقه ابن حزم في أبياتٍ تسلط الضوء على ثنائيتي الحياة والموت في ازدواج نرى فيه ذات الشاعر منشطرةً في زمنٍ وجودي ونفسهُ معلقة بين الحياتين تنظر الى الآخرة كما تنظر الى الدنيا فيقول"[٣٣]:

فلا تنسَ تأبيني إذا ما فَقدتَنِي وتذكار أيامي وفضل خلائقي
وحرّك بهِ باللهّ من أهلِ فنناً إذا غيبوني كل شهمٍ غرانقِ
عسى هامتي في القبر تسمعُ بعضهُ بترجيع سارٍ أو بترطيب طارقِ

في هذا النص الشعري يتضحُ لنا إن مفهوم الزمن الوجودي في الشعر يُعدُ مفهوماً جوهرياً شديد التعقيد فهو مرتبط بحياة الإنسان وموته، فالحياة مفهوم زمني والمكان مفهومٌ زمني، حيث تحول مفهوم الزمن من المفهوم البسيط الى المفهوم الأكثر تعقيداً تداخلت فيه المستويات الزمنية المختلفة من ماضي وحاضر ومستقبل تداخلاً عجيباً. وفي هذا النص يجسد الزمن مفاهيماً مختلفة حسب الحالة الشعورية المراد تجسيدها في تلك اللحظة الزمنية وهي لحظة الموت بعد أن أشار النص الى وصية مرتقبةٍ من قبل الشاعر، فالزمن لا يمكن حصره في وحدةٍ واحدة فهو الماضي والحاضر والمستقبل والموت موجودٌ في هذه الأزمان الثلاثة فيشيرُ إلى ماضيه الممتزج بالألم والحزن وبعض الافراح والذكريات، فجعل من كل ذلك تعبيراً عن مأساة الإنسان الوجودية ليتخذ طابعاً فلسفياً جعل منه مشتركاً كونياً ليصبح في أمس الحاجة الى كل جزءٍ من ماضيه القريب أو البعيد.

ثم يعلو شعور الخوف من الموت وسكراته من قبل الشاعر فيقول"[٣٤]:

إني لأرمقهُ والموت يضغطني فأقتضي فرجة مرتدٍ أرمافي

يبين لنا الشاعر شدة تمسكه بالحياة لآخر رمق فيها ويزداد هذا الصراع حدة في شعره فنجده قد طبع سلوكه وحياته.

خامساً: اغتراب الوجود (الطلل)

يوضحُ انا الشاعر هنا شعوره بالاغتراب بعد سقوط قرطبة التي أضحت أطلالاً باكية، فهو يندب القدر ويعاتب ذلك الزمن الذي جعله يشعر بالاغتراب، في قصيدةٍ تتكون من إثنين وثلاثين بيتاً يقولُ فيها"[٣٥]:

ما في الطلول من الأحبة مخبرُ فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألنَ سوى الفراق فإنهُ يُنبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جارَ الزمانُ عليهم فتفرقوا في كلِ ناحيةٍ وباد الأكثرُ
جرت الخطوبُ على محل ديارهم وعليهم فتغيّرت وتغيروا

أضحى الزمن الوجودي في هذه الأبيات الشعرية عدواً لابن شُهَيد نتيجة لحزنهِ الشديد، وهو يرى تبدُل أحوال بلادَه فصور لنا حالة متناقضة عما آلت إليه قرطبة فيصورُ عالمه الذي تداعى في مكانٍ لم يعد هو قرطبة التي كانت منارةً للعلم والعلماء وكيف أصبحت أطلالاً واهية، فوقوف الشاعر على أطلال هذه المكان هو نوعٌ من أنواع الغربة الوجودية وهو لا يقصدُ بذلك تقليد شعراء الجاهلية في وقوفهم على الأطلال، بل إن الأمرَ أعمقُ من ذلك بكثير فالشاعر يبكي الأطلال بإعتبارها المكان الأنسب ليبكي فيها الشاعر غربتهُ، فروحهُ كالأطلال كانت مليئة بالحياة ثم فجأة أصبحت متجردة من كل حياة وبذلك أعطى الشاعرُ القصيدةَ بعداً وجودياً.

واخيراً نقول الزمن الوجودي هو الزمن الذاتي أو الزمن الوجودي، ليس كميا، بل كيفيا يرتبط بالفرد وبتجاربه وبحياته التي تتجه نحو الموت.

ارتبط المفهوم بالفيلسوف "مارتن هيدغر"، الذي طور فكرة الزمان عن الفلسفات القديمة، بل وانتقدها، وركز بشكل أكثر على مقاربة كل من إيمانويل كانط، وهوسرل، ما شكل ثورة على المقاربة الكلاسيكية لمفهوم الزمن. حيث إن هيدغر وصل الزمن بالوجود.

خاصة على المستوى الإشكالي. فكلاهما غامض، ويصعب تفسيره. خاصة بعد طرح الإشكال هل الزمن بالمعنى الكمي موجود فعلا، أم إنه مجرد تصور أضفاه الإنسان على الوقائع كي يمنحها معنى معقولا؟

من هنا ربط هيدغر، الزمن بالفرد وبتجاربه الوجودية. ومن هنا أيضا اسبقية الوجود على الزمن. وعكس كل التمثلات التي ترى في الزمن عدوا للإنسان وقاهره الأساسي، فإن الإنسان قادر على الإفلات من إسر الزمن، والتجربة الصوفية خير مثال على ذلك، حيث يتجاوز الصوفي الازمنة وكذا الأمكنة.

الزمن إذن، جزء منا، من كينونتا. لهذا سيتم تجاوز التصنيف المتعارف عليه: ماضي، حاضر، مستقبل. ليوحد هيدغر الأزمنة في ما سماه اللحظة، ويربطه بالكينونة. إنه زمن الموجود-الإنسان، الذي يتحرك نحو الموت...ليبدأ رحلة أخرى وزمن لامتناهٍ.

ومن هنا فالزمن الوجودي هو الزمانية كما حدده هيدغر، هذه الزمانية تعمل في اللحظة وتنتهي بالموت. الزمن إذن غير منفصل عن الكينونة، أنه جزء منها. والزمن ليس كميا موضوعيا كما يعتقد حسب هذا الطرح، بل بنية داخلية للذات، يبدأ بميلادها وينتهي بوفاتها.

تمثل الزمن الوجودي في شعر ابن شهيد بتمثلاتٍ متعددة منها الموت الذي احتل النصيب الأكبر في شعر ابن شهيد لإرتباطه بالزمن الوجودي بالإضافة الى اغتراب الوجود، والمعاناة من المرض، والغزل الصريح، والشكوى

على الرغم من حبِ الشاعر للحياة وولعهِ بها، إلا أن شعره طغت عليه النزعة الفلسفية الوجودية التي ذكرتهُ دائماً بذاتهِ ووجودهِ، وفنائهِ، ومصيرهِ، وخاصة سؤال الموت وما رافقهُ من ألمٍ وخوفٍ وقلقٍ مما ساعدتهُ هذه النظرة الفلسفية الوجودية على التأملِ في أسرار الكون.

الهوامش والاحالات

١) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، د.فاطمة طحطح، الرباط، المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٣، ط١، ٧٠.

٢) المصدر نفسه: ٧٣.

٣) الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين والسيد صقر، القاهرة، ١٩٥١، ٢٥.

٤) الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر، ترجمة فؤاد كامل، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ١٠٨.

٥) العالم بوصفه حضوراً ميتافيزيقياً، ادريس هاني، مجلة الاستغراب، العدد الثاني، بيروت، ٢٠١٦، ١٢٩.

٦) إشكالية الزمن، صالح ولعة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العربي، ١.

٧) فينو مينو لوجيا الروح، هيجل، ترجمة ناجي العونلي، مركز دراسات الوحدة، بيروت، ٢٠١٢، ط١، ٦٤٨.

٨) الزمن بين الفلسفة والفن، عبير صلاح الدين، طبعة الهيأة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ١٩.

٩) جدلية الزمن، غاستون باسلاك، ترجمة خليل أحمد، الجزائر، ١٩٨٢، ٥.

١٠) الكينونة والزمان، مارتن هيدغر، تر. فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٢، ٥٧٢.

١١) الزمن بين الفلسفة والفن، عبير صلاح الدين، طبعة الهيأة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ١٩.

١٢) الوجود الحقيقي عند هيدغر، صفاء عبد السلام علي جعفر، مكتبة المعارف الأسكندرية، ٢٠٠٠، ط ١، ٤١١.

١٣) العالم بوصفه حضوراً ميتافيزيقياً، ادريس هاني، مجلة الاستغراب، العدد الثاني، بيروت، ٢٠١٦، ١٢٩-١٣٠.

١٤) الكينونة والزمان، مارتن هيدغر، تر. فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٢، ٥٨٧.

١٥) دراسات في الفلسفة الوجودية، عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠، ط ١، ١٠٢-١٠٣.

١٦) الكينونة والزمان، مارتن هيدغر، ٥٩٠.

١٧) الكينونة والزمان، مارتن هيدغر، ترجمة فتحي المسيكني، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠١٢، ط١، ٥٧١.

١٨) دراسات في الفلسفة الوجودية، عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠، ط ١، ١٠٢-١٠٣.

١٩) ظواهرية الادراك، موريس مير لوبوني، ترجمة فؤاد شاهين، بيروت، ١٩٩٨، ٣٣٥-٣٣٧.

٢٠) الوجود الحقيقي عند هيدغر، صفاء عبد السلام علي جعفر، مكتبة المعارف الأسكندرية، ٢٠٠٠، ط ١، ٤١١.

٢١) هيدغر والسؤال عن الزمن، فرانسو ازداستور، ترجمة سامي ادهم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣، ط ١، ٣٢٩-الوجود الحقيقي عند هيدغر، ٤١٣.

٢٢) الوجود الحقيقي عند هيدغر، صفاء عبد السلام علي جعفر، مكتبة المعارف الأسكندرية، ٢٠٠٠، ط ١، ٤١٣.

٢٣) ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه يعقوب زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت، د.ط، ٨٥.

٢٤) المصدر نفسه: ١١٧.

٢٥) المصدر نفسه: ١٤٥.

٢٦) المصدر نفسه والصفحة.

٢٧) المصدر نفسه والصفحة.

٢٨) المصدر نفسه: ١٢٩.

٢٩) المصدر نفسه والصفحة.

٣٠) المصدر نفسه والصفحة.

٣١) المصدر نفسه والصفحة.

٣٢) المصدر نفسه والصفحة.

٣٣) المصدر نفسه: ١٣٤-١٣٥.

٣٤) المصدر نفسه: ١٢٩.

٣٥) المصدر نفسة، ١٠٩.

مظان البحث:

١) جدلية الزمن، غاستون باسلاك، ترجمة خليل أحمد، الجزائر، ١٩٨٢.

٢) دراسات في الفلسفة الوجودية، عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠، ط ١.

٣) دراسات في الفلسفة الوجودية، عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠، ط ١.

٤) ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه يعقوب زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت، د.ط.

٥) الزمن بين الفلسفة والفن، عبير صلاح الدين، طبعة الهيأة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

٦) الزمن بين الفلسفة والفن، عبير صلاح الدين، طبعة الهيأة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

٧) ظواهرية الادراك، موريس مير لوبوني، ترجمة فؤاد شاهين، بيروت، ١٩٩٨.

٨) العالم بوصفه حضوراً ميتافيزيقياً، ادريس هاني، مجلة الاستغراب، العدد الثاني، بيروت، ٢٠١٦.

٩) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، د.فاطمة طحطح، الرباط، المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٣، ط١.

١٠) الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر، ترجمة فؤاد كامل، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

١١) فينو مينو لوجيا الروح، هيجل، ترجمة ناجي العونلي، مركز دراسات الوحدة، بيروت، ٢٠١٢، ط١.

١٢) الكينونة والزمان، مارتن هيدغر، ترجمة فتحي المسيكني، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠١٢، ط١.
١٣) الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين والسيد صقر، القاهرة، ١٩٥١.
١٤) هيدغر والسؤال عن الزمن، فرانسو ازداستور، ترجمة سامي ادهم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣، ط ١، ٣٢٩-الوجود الحقيقي عند هيدغر.
١٥) الوجود الحقيقي عند هيدغر، صفاء عبد السلام علي جعفر، مكتبة المعارف الأسكندرية، ٢٠٠٠، ط ١.

الدوريات:

١) إشكالية الزمن، صالح ولعة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العربي.
٢) العالم بوصفه حضوراً ميتافيزيقياً، ادريس هاني، مجلة الاستغراب، العدد الثاني، بيروت، ٢٠١٦.